

البرنامج السردى في النظرية السيميائية (مفهومه وأصنافه)

(le programme narratif) :

د. قادة عقاق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ جامعة سيدي بلعباس

يُعدُّ البرنامج السردى في النظرية السيميائية مفهوما إجرائيا بسيطا قابلا لكل التمطيطات والتضعيفات الشكلية المختلفة، دون أن يمس ذلك في شيء صفته التركيبية البنيوية ولا فاعليته التطبيقية¹ ومن بين أشكال التمطيطات والتضعيفات التي يمكن إدخالها على البرنامج السردى البسيط، يورد غريماس أربعة احتمالات²:

- (1) الأعمال المعادة مرتين أو ثلاثا، والتي هي ليست في الواقع سوى تضعيفات كمّية لبرامج سردية ذات معانٍ واحدة، وذات وطبيعة واحدة.
- (2) كما يمكن أن تُضعف البرامج السردية انطلاقا من تضعيف موضوعات القيمة المرغوب فيها.
- (3) أو من خلال علاقة اندماجية، بحيث يمكن الجمع بين برنامجين سرديين اثنين أو عدة برامج سردية مترابطة فيما بينها، كبرنامج سردي استعمالى (P.N d'usage) سابق على البرنامج السردى الرئيسى (P.N Principale)؛ بحيث أنه مثلا:
- (4)

لكي يصل القرد إلى الموز، يبحث أولا عن العصا.**

ب.س استعمالى

ب.س رئيسى

- (5) كما يمكن أيضا إدخال عدد من البرامج السردية المتلازمة انطلاقا من تنقّلات الموضوعات والتواصل بين الفاعلين.

تؤكد هذه التنويعات المشار إليها أنفا الطابع المرن لهذا المفهوم، كما تُبين في الآن نفسه، فاعليته التطبيقية وكفايته الإجرائية في تحليل النصوص باختلاف أصنافها وأحجامها.

ويتأسس البرنامج السردى - في النظرية السيميائية - باعتباره تتابعا للحالات وتحولاتها المتسلسلة على أساس ما بين الفاعل والموضوع من علاقة - (وصل أو فصل) - وتحولها؛ مما يعني أنه يمثل التحقيق الخاص للمقطوعة السردية في حكاية ما، والتي تُبرز فيها مختلف الملفوظات السردية تحولات تدل على الحالة (امتلاك المواضيع الكيفية ومواضيع القيمة أو فقدانها).³ وهو أمر يمكننا من القول إن البرنامج السردى هو نظام

أساسي في التركيبة السردية يتشكل في أساسه من ملفوظات الفعل التي تحكم ملفوظات الحالة، مما يجعل الفاعل فاعلين:

1. فاعل حالة في علاقة اتصال (وصل) أو انفصال (فصل) بالموضوع، وهو يدل على أن العلاقة بين (الفاعل والموضوع) تحدد ملفوظ الحالة.

2. وفاعل الفعل، أو فاعل الإجراء في علاقته بالإنجاز الذي يحققه، وهو يدل على أن العلاقة بين فاعل الفعل والفعل تحدد ملفوظ الفعل.4

انطلاقاً من هذا، نتحدد الصياغة العامة للتحوّل في البرنامج السردية في الشكلين الآتيين:

$$(1) \text{ ب.س: و(ف1) } \Leftarrow \text{ (ف2 م) } \Leftarrow \text{ (ف2 U م) }.$$

$$(2) \text{ ب.س: و(ف1) } \Leftarrow \text{ (ف2 U م) } \Leftarrow \text{ (ف2 م) }.$$

وتجدر الإشارة هنا إلى أن مختلف الأدوار العاملة التي ذكرناها سابقاً تصدّق على مواقع مختلفة في هذه الصياغة العامة 5.

يمثل البرنامج السردية (ب.س) في الشكل (1) الانتقال من وضعية امتلاك (ف2 م) إلى وضعية معاكسة يُعبّر عنها بمصطلح (فقدان) (Privation)*، أما (ب.س) في الشكل (2) فيمثل الانتقال من وضعية افتقار (ف2 U م) إلى وضعية يُصلح فيها الافتقار، ويُعبّر عنها بالمصطلح (امتلاك) (Acquisition)**.

أشرنا آنفاً إلى أن البرنامج السردية من حيث هو مفهوم إجرائي بسيط ومرن أثبت فعاليته الإجرائية وكفايته في تحليل النصوص على اختلاف أصنافها وأحجامها يتقبّل شتى التمطيطات والتضعيفات التي لا تمسّ في شيء صفته التركيبية ولا فاعليته البنيوية، وكنا قد ذكرنا أن غريماس حصر أشكال هذه التمطيطات في أربعة احتمالات أو مستويات، ومن أجل مزيد من الضبط والتوضيح نرى أنه من اللازم علينا تفصيل الحديث في هذه المستويات كلّ على حدة، بادئين من البسيط إلى المعقد إلى الأكثر تعقيداً، بما في ذلك مراحلها ومساراتها السردية وأبعادها العملية والمعرفية.

1.2.1. البرنامج السردية البسيط (العادي):

لا يخفى أنّ الهدف من هذه التسمية هو "إبراز الطابع التركيبي البسيط لهذا النوع من البرامج القائمة على فعل إنجازي واحد، يتوخّى قلب الحالة البدئية (l'état initial) بغضّ النظر عن كونها حالة اتصال (وصل) أو انفصال (فصل)، واستبدالها بحالة نهائية (l'état final) لا غير"6. إن بساطة هذا البرنامج تكمن في كونه يقوم على افتراض وجود فاعل واحد (ف1) على علاقة بموضوع واحد (اتصال أو انفصال). وعليه فإذا أدرجنا فاعلاً ثانياً (ف2) معنياً بالموضوع نفسه غير

قابل للاشتراك فيه (non participatif) 7 يُضَاعَف البرنامج السردى، ويتبين المحل في هذا الإطار توسعاً في أنساق العلاقات.

2.2.1. مضاعفة البرنامج السردى (dédoulement du programme narratif):

إن إدراج فاعل ثان أو عدة فواعل في برنامج سردي ما تتصارع من أجل الحصول على موضوع قيمة واحد، غير قابل للاشتراك فيه يؤدي إلى توسع في أنساق العلاقات وتشابك فيها، ويؤدي بالتالي إلى مضاعفة البرنامج السردى، كما أُشير إلى ذلك أعلاه، لأن علاقة الموضوع بمختلف الفاعلين في مثل هذه الحالة تفترض وجود ازواجية في الصلة بينهم، حيث إن ما يحقق الاتصال عند بعضهم يؤدي إلى الانفصال عند بعضهم الآخر؛ فإذا امتلك فاعل ما موضوعاً، أفضى ذلك إلى سلبه من فاعل آخر، ولتسمه "فاعلاً نقيضاً". كما يؤدي سلب فاعل ما موضوعاً إلى امتلاك فاعل آخر له في حركة دائرية مغلقة، على اعتبار أن انتقال الموضوع من فاعل إلى آخر يجري في عالم مغلق محكوم بقواعد تعاملية قارة 8.

ويمكن تجسيد هاتين الحالتين الاحتماليتين في الصيغتين التجريديتين الآتيتين:

(أ) $(1 \cap \text{ف}) \cap \text{م}$ (ف $2 \cup \text{م}$)، ويمكن اختزالها في الشكل الآتي:

$$(1 \cap \text{ف}) \cap \text{م} \cup \text{ف} 2$$

(ب) $(1 \cup \text{ف}) \cap \text{م}$ (ف $2 \cap \text{م}$)، ويمكن اختزالها في الشكل الآتي:

$$(1 \cup \text{ف}) \cap \text{م} \cap \text{ف} 2$$

يمثل الشكل (أ) الحالة الأولية التي يكون فيها (ف1) على علاقة اتصال بالموضوع بينما (ف2) منفصلاً عنه، في حين يمثل الشكل (ب) الحالة النهائية التي يصبح فيها (ف2) على علاقة اتصال بالموضوع، ويفقد فيها (ف1) اتصاله به، لتجمعه به علاقة انفصال، بحيث "يصبح الفاعل الحالي المتصل بالموضوع في البداية منفصلاً عنه في النهاية، والمنفصل عنه في البداية متصلاً به في النهاية" 9. يتم هذا بعد تدخل فاعل الفعل (ف3) وقيامه بعملية التحويل بين الحالتين. ويمكن بيان ذلك في الصيغة التمثيلية الآتية:

$$(3 \text{ ف}) \Leftarrow [(1 \text{ ف}) \cap \text{م} \cup \text{ف} 2] \Leftarrow (2 \text{ ف}) \cap \text{م} \cup \text{ف} 1$$

أو:

$$(3 \text{ ف}) \Leftarrow [(1 \text{ ف}) \cap \text{م} \cup \text{ف} 2] \Leftarrow (2 \text{ ف}) \cap \text{م} \cup \text{ف} 1 *$$

مما تقدم بيانه، يصل غريماس إلى نتيجة مفادها أن "خطاباً سردياً على جانب من البساطة يتأسس على مشروعين سرديين متلازمين (corrélés). ومن ثم يجوز للراوي أن

يُركّز على أحدهما جاعلا الآخر ضمنيا، لكن في اتجاه معكوس¹ هذا يعني أن كل برنامج سردي يفترض على الأقل وجود برنامج سردي آخر نقيض له، منظور إليه من خلال تحولات مضادة، تساهم في خلق برامج سردية متفاوتة الأحجام، تتتابع على المستوى النظامي تتابعا عكسيا، يحتم على المستوى الاستبدالي تحليلها وفق آليات التناقض والتضاد. هذا ما يؤكد غريماس في قوله "إنَّ كلَّ حكاية قائمة على الجدل في إطار تحقيقها لبنية استبدالية، تجعل حضور عامل وعامل مضاد، يسير وفق برنامج سردي مزدوج حيث تتواجد المفوضات- في مجملها أو في جزء منها- متجاوزة ومتلازمة".¹²

إن هذه الازدواجية المتولدة عن رغبة فاعلين- أو أكثر- في موضوع قيمة واحد، تفتح الباب على مصراعيه للحديث عن (المواجهة) (confrontation) التي تشكل قطبا رئيسيا من أقطاب الترسيمة السردية (schéma narratif) بغض النظر عن كون هذه المواجهة عنيفة أو تصالحية، متمظهرة في معركة حيناً، وفي تبادل (échange) حيناً آخر. فاتصال فاعل من الفواعل بموضوع ما- والحالة هذه- يفرض بالضرورة انفصال فاعل آخر عنه، فـ "على إثر هذه المواجهة (أو المصالحة) يكون فاعل من الفواعل مضطرا لإحداث فصلة [عن] موضوع القيمة، في حين يدخل مضاد الفاعل في وصلة مع هذا الموضوع".¹³ وهو ما يؤسس للحديث عن تلك المواجهة ذات الطابع الصراعى (caractère polémique) أو السلمى- كما سبقت الإشارة إلى ذلك آنفا- التي يتمحور عليها مدار الحكاية كله- والتي لا مندوحة عنها لأي برنامج سردي- بين ما يسمى بالفاعل المهيمن (Sujet Dominant) ومضاد الفاعل المهيمن (Anti-sujet dominé) مما يضطرنا إلى "اعتبار الترسيمة السردية مؤلفة من مسارين سرديين خاصين بالفواعل (الفاعل ومضاد الفاعل) ومتموضعين داخل الحكاية، ويمكن أن يتحرك هذان المساران في اتجاهين مختلفين، يهيمن الأول على البداية ويهيمن الثاني على نهاية السرد".¹⁴

أشرنا في فقرة سابقة- في إطار حديثنا عن التضعيفات التي يحتمل أن يكون البرنامج السردى عرضة لها- إلى أنه يمكن أن تتضاعف البرامج السردية وتتكاثر انطلاقا من علاقة اندماجية، يتم الجمع فيها بين برنامجين سرديين أو أكثر، وذكرنا أنه من بين البرامج التي يمكن أن تخضع لهذا الدمج والجمع، ما يسمى بالبرنامج السردى الرئيسى (P.N. principal) والبرنامج السردى الإستعمالي (P.N. d'usage)، وفيما يأتي تفصيل بعض ذلك.

1.2.2.1. البرنامج السردى الرئيسى:

ويسمى أيضا البرنامج السردى القاعدي (P.N. de base)، وهو أساسى لأن تعيين الإنجازات الهادفة إلى تحقيق تحول رئيسى في العلاقة الحالية بين الفاعل والموضوع لا تتم إلا به ومن خلاله.

2.2.2.1. البرنامج السردى الاستعمالي:

وهو برنامج سردي سابق عن الأول ملحق به وملحج ضمنه، ومُنْخَذٌ كنزيرة له؛ بحيث أنه (لكي يصل القرد إلى الموز يبحث أولاً عن العصا)، فعملية البحث (التحرّي) هذه تعتبر برنامجاً سردياً ثانوياً مفترضاً، ولكنه ضروري للمرور إلى البرنامج الرئيسي أو القاعدي.

وتجدر الإشارة هنا، إلى أنه نظراً لكون هذا البرنامج (الاستعمالي) يُعدُّ برنامجاً سردياً ملحقاً (P.N. Annexe)، فإنه قد يتم إنجازه سواء من لدن الفاعل نفسه، كما هو الشأن في المثال السابق (القرد ← العصا ← الموز)، أو قد يتم إنجازه من لدن فاعل آخر ينوب عنه ويحل محله. إن هذا الدمج الذي يتم بين البرنامجين هو ما يعبر عنه غريماس في قوله: إن "البرنامج السردى هو وحدة من الخطاب السردى، قائمة بذاتها، وقابلة لأن تُوظَّف كحكاية، لكن يمكن كذلك أن تُدرج ضمنه من حيث هي جزء من الأجزاء المكونة له. والموضع الذي تحتله يحدّد منها وظيفتها في البنية العامة للنظام السردى". 15

تطرقنا لحدّ الآن - فيما يتعلق بمضاعفة البرنامج السردى، وأنماط العلاقات المحتمل تولدها نتيجة لذلك - إلى تلك العلاقات المتولدة عن وجود

فاعلين اثنين متقابلين يرغبان في الموضوع نفسه، وبقي الآن أن نعكس الأمر ونفترض وجود موضوعين اثنين مقابل فاعل واحد، أحدهما على صلة بهذا الفاعل (ف1) والآخر في حال انفصال عنه، وهو ما يمكن صياغته في الشكل الآتي: 16

$$\begin{aligned} & \bullet (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \\ & \bullet (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \text{ أو } (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \end{aligned}$$

وتحوّل العلاقة بين العوامل أو استحالتها، تؤدي إلى انفصال الفاعل عن الموضوع المتّصل به قبل عملية التحويل واتصاله بالموضوع المنفصل عنه قبل العملية نفسها أيضاً، وهو ما تتم صياغته كالآتي:

$$\begin{aligned} & \bullet (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \leftarrow (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \\ & \bullet (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \leftarrow (م_1 \cap ف_1 \cup م_2) \end{aligned}$$

هذا في حال وجود فاعل واحد في مقابل موضوعين اثنين، أما في حال انتصاب فاعل ثان متصل بأحد الموضوعين، ومبادلته إياه بموضوع آخر في حوزة فاعل أول، نحصل على الصيغة التجريدية الآتية: 17

• الحالة الأولى:

$$- (م_1 \cap ف_1 \cup م_2)$$

$$- (م_1 \cap ف_1 \cup م_2)$$

• الحالة الثانية بعد عملية التحويل:

- (م1ف1U1م2)

- (م1ف2U1م2)

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن هاتين العمليتين التحويليتين تعدان من جهة أولى، إنجازا ثنائيا مبنيا على (التهبة)، التي تقوم من وجهة نظر غريماس على تلازم ضربين من الانتقال هما: "التنازل" (renonciation) و"الوصل" ** (المنح) (attribution)، واللذين يكتسب النص بمقتضاها - على عكس الاختبار (épreuve) طابع الاتزان والتواصل والبراءة، ويستوي فيهما من جهة أخرى، كل من الفاعلين قائما بفعل التحويل وفي الآن ذاته فاعلا حاليا. 18

يقتضي البرنامج السردى المضاعف - سواء بسبب تعدد الفواعل فيه وصراعهم على موضوع القيمة نفسه غير القابل للاشتراك فيه، أو بسبب تعدد مواضيع القيمة نفسها - أنماطا خاصة من انتقال الموضوع بين هؤلاء الفواعل، تحصرها السيميائيات السردية في أربعة أنماط، يختص اثنان منها بالفعل التحويلي المفضي إلى الاتصال، ويختص الآخران بالفعل التحويلي المؤدي إلى الانفصال، وهو موضوع سنتكفل بتفحصه لاحقا - بعد معالجتنا لإشكالية المقطوعة السردية وأطوار البرنامج السردى - تحت مبحث البرنامج السردى المركب وأنماط انتقال الموضوع.

3.2.1. المقطوعة السردية وأطوار البرنامج السردى La séquence

:narrative et les phases du. P.N

كل برنامج سردي سواء أكان بسيطا أم مركبا، يمكن تقسيمه - في إطار التحليل السردى - إلى وحدات دُنْيا، تُشكّل مراحل سيرورة الحدث السردى من بدايته إلى نهايته، يسميها غريماس (المسارات السردية) (les parcours narratif)، وهي التي تُكوّن ما يسمّى في السيميائيات السردية بـ (الترسيمة السردية) (schéma narratif)، وهي أربع مراحل متعاقبة ومتدرجة منطقيا*. تتمثل فيما يأتي:

(1) التحريك (التفعيل) Manipulation.

(2) الكفاءة (القدرة) Compétence.

(3) الإنجاز (الأداء) Performance.

التقويم Sanction.

ترى مجموعة "انتيروفيرن G.d'Entrevérnes" أنه ليس من الضروري ظهور هذه الأطوار الأربعة جميعها في النص السردى المقروء، بل يكفي أن نتعرّف على أحدها

لننتهي إلى البقية في البرنامج السردى، لأن بعضها يستدعى البعض الآخر منطقياً، مما يجعلها بنية عامة ومجردة للسردية، وهو ما يبيّنه الجدول الآتي: 19

التحريك Manipulation	الكفاءة Compétence	الإنجاز <u>Performance</u>	التقويم Sanction
فعل الفعل Faire-Faire	ماهية الفعل Etre-faire	فعل الماهية Faire-être	ماهية الماهية Etre-être
علاقة مرسل بفاعل (إجرائي عملي)	علاقة فاعل إجرائي بعملية (موضوعات القيمية) (Modaux objets de) (valeur	علاقة فاعل إجرائي بحالات (موضوعات القيمية) (valeur	علاقة مرسل بفاعل (إجرائي عملي)

وهذا ما يندرج ضمن بُعدي البرنامج السردى: البعد التداولي (العملي) (la dimension pragmatique) والبعد المعرفي (la dimension cognitive) اللذين يشكلان ثنائية (ضرورية) لتحليل الخطاب السردى. فمن حيث يتجسّد البُعد الأول- التداولي- في البنية الفعلية (Structure actionnelle) المحصورة ما بين مرحلتى (الكفاءة) و(الأداء)، يقع البعد الثانى (المعرفى) على مستوى البنية التعاقدية (la structure contractuelle) المحصورة ما بين مرحلتى (التحريك) و(التقويم) 20. وهو موضوع حديث آخر إن شاء الله.

الإحالات:

1. Voir : Claude BREMOND, logique du récit, Col, Poétique. Ed. Seuil. Paris 1973, p93. □
2. Ibid. p93. □
3. Claude BREMOND , Op. cit. P.93.
4. Ibid, p.94 □
5. Claude BREMOND , Op. cit. P.99. □
6. PETITIOT: "Carré sémiotique et schématisation de la structure", Bulletin C.R.S.L.
7. ينظر محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز)، المركز الثقافى العربى، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، الغرب 1994، ط1، ص39.

• سنتناول لاحقاً النقد الذي وجه إلى مفهومي "المسار السردى" و"السردية" من طرف هذا الباحث.
8. Jacques FONTANILLE, Sémiotique et littérature, Essai de méthode, P.U.F., Paris, 1999, P.45.
9. ينظر عبد القادر شرشار، مستويات التحليل السيميائى في مقارنة النص السردى، مجلة بحوث سيميائية، يصورها مخبر عادات وأشكال التعبير الشعبى بالجزائر، جامعة تلمسان، دار الغرب للنشر والتوزيع، 1، سبتمبر 2002، ص138.
- Voir: Jacques FONTANILLE. Op. Cit. p 4.10
11. ينظر: محمد مفتاح: بعض خصائص الخطاب، مجلة علامات، مرجع مذكور سابقاً، ص 11.
- 12 A.J. GREIMAS, J.COURTES, Dictionnaire raisonné... op.cit.p.p. 197, 199

13 Voir: François RASTIER: "Systématique des isotopies" in sémiotique poétique, Larousse, Paris, 1972, p.80.

وينظر أيضاً: محمد مفتاح، "تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، مرجع سابق، ص 11.

❖ يعرف غريماس "التشاكل" على أنه "مجموعة مترابطة من المقولات المعنوية (أي المقننات) التي تجعل من قراءة متشاكلة للحكاية، كما تتجنت عن قراءات جزئية للأقوال بعد حل إيهامها، هذا الحل نفسه موجه بالبحث عن القراءة المنسجمة".

هذا و لغريماس تعريفات أخرى لهذا المفهوم منها "أنه عبارة عن محور تركيبى على مدى سلسلة تركيبية من الكلام مؤلفة من كلا سيمات (Classèmes) تستطيع ضمان التجانس للخطاب المنطوق".

Voir: A.J. GREIMAS, J. COURTES, Dictionnaire raisonné, op.cit (Isotopie), p.p. 197.199.

اعتمدنا في التعريف الأول على الترجمة التي يضعها محمد مفتاح لهذا المقطع في مؤلفه. تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، مرجع سابق، ص 20.

واعتمدنا في التعريف الثاني على الترجمة التي يوردها عبد الملك مرتاض في مقاله: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، مجلة علامات، ج 5، م 2، سبتمبر 1992 م، ص 158.

14 F. RASTIER, "Systématique des isotopies" in op.cit.p.82.

استعنا بالترجمة التي يصوغها عبد الملك مرتاض لهذا التعريف، في مقال: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، المرجع المذكور سابقاً، الصفحة نفسها.

15 ينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، مرجع سابق، ص 21.

16 ❖ Groupe M, la Rhétorique de la poésie, P.U.F, Paris, 1997. □

17 Ibid, p.82.

وينظر أيضاً: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، مرجع سابق، ص 21.

18 نظر: محمد مفتاح، المرجع نفسه، الصفحة 22.

19. المرجع السابق، الصفحة نفسها.

❖ وتوضيح هذا الاختلاف بين غريماس وجماعة أم (Groupe M)، وتبرير انتقادها له تلجأ هذه الأخيرة إلى إيراد أمثلة توضيحية منها ثنائية (الليل والنهار)، حيث يوجد فيه تشاكل لدى غريماس لاحتوائه على مقوم (سيم) جامع بينهما، وهو قياس الزمن، أما عند الجماعة فلا يوجد فيه تشاكل، وذلك للتناقض التركيبي الموجود فيه.

Voir: Groupe M, op.cit, P 41.

وينظر: محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري، ... المرجع المذكور سابقاً، ص 22.

20 Voir: A.J. GREIMAS, Univers de Bermanos, in sémantique structurale, op.cit. p.p. 225.256 □